بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة: 09/12/2011م **الشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَّال**

سلسلة قرأت في كتاب

(دمشق: صور من جمالها، وعِبر من نضالها)

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى وأحثكم وإياي على طاعة الله، فنحن اليوم في دار ابتلاء فالسعيد من وعظ بغيره، والسعيد من ملأ حياته طاعة، وغير السعيد من ذهب اتجاه المعصية، أو انشغل عن الطاعات بالأهواء والملذات، إنه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره

ثم أستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:1]، وحول المسجد الأقصى أرض الشام.

وقال ربنا: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:70-71]، والأرض التي نجى الله إبراهيم ولوطاً إليها هي أرض الشام.

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:81]، والأرض المباركة التي كانت تجري الرياح إليها هي أرض الشام.

وقال ربنا: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ:18]، والقرى التي بارك الله فيها في هذه الآية هي قرى الشام على قول المفسرين.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم بارك لنا في شامنا)) [البخاري]

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((طوبى للشام، إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها)) [الترمذي وأحمد].

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عليكم بالشام، فإنها صفوة بلاد الله، يسكنها خِيرته من خلقه، وإن الله تكفَّل لي بالشام وأهلها)) [الطبراني]

هذه هي الخطبة الخامسة عشرة في سلسلة خُطَب عنوانها **(قرأت في كتاب)**، أختار لكم فيها فوائد منثورة، في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(دمشق: صور من جمالها، وعِبر من نضالها)

والعنوان المختار هو عنوان كتاب كتب مقالاتِه الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله-، الفقيه الأديب القاضي العلامة الشهير، من مواليد دمشق (1909م)، ووفيات جدة (1999م).

قالوا عنه: فقيه الأدباء، وأديب الفقهاء.

تحدث في كتابه هذا عن صور من جمال مدينة دمشق، جمال المَنْظَر والمَخْبَر، وعن عبر من نضالها في سبيل نيل حرّيتها واستقلالها عن الاستعمار الفرنسي الدخيل.

وأحببتُ أن أقطف لكم مختارات مما ساقه في هذا الكتاب الماتع...

يقول في مطلعه:

(دمشق، وهل توصف دمشق؟!! وهل تُصَوّر الجنة لمن لم يرَها؟! مَن يصفها وهي دنيا من أحلام الحبّ وأمجاد البطولة وروائع الخلود؟! مَن يكتب عنها وهي من جنات الخلد الباقية بقلمٍ من أقلام الأرض فانٍ.

دمشق التي يحضنها الجبل الأشمّ الرابض بين الصخر والشجر، المترفّع عن الأرض التي ترفع البطولة العبقرية، الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق....

دمشق التي تحرسها الربوة ذات الشاذروان وهي خاشعة في محرابها الصخري، تسبّح الله وتحمده على أن أعطاها نصف الجمال حين قسم في بقاع الأرض كلّها النصف الثاني...

دمشق التي تعانقها الغوطة، الأمّ الرؤوم السّاهرة أبداً...

الغوطة الواسعة التي تبدو للناظر كأنها بحرٌ من الخضرة، قد نُثِرَت فيها القرى التي تنيف على العشرين عَدّاً، أكبرها (دوما) التي تُفاخِر في عنبها كلَّ أرضٍ فيها عنب، و(حرستا) بلد الزيتون ومنبَت الإمام محمد صاحب أبي حنيفة، و(مسرابا) وهي حديقة ورد، وكفر سوسية وكفر بطنا والأشرفية وصحنايا...

اللهم إن تحت كل شجرة من أشجار الغوطة جثة شهيد مات دفاعاً عن هذه الأرض الطاهرة التي سقيت بالدم...، اللهم كما جعلت دمشق درة الكون، ومنحتها مالم تمنَح بلداً، أكمل عليها نعمتك وهب لها الحرية والمجد...).

ثم راح الشيخ الطنطاوي يتحدث عن جمال المدينة وما حولها، **ثم قال:** (هذي دمشق، أقدم مدن الأرض وأجملها، هواؤها أطيب هواء، وماؤها أعذب ماء، وطعامها أَمْرأ طعام، ومنظرها أبهى منظر، ومَخْبَرها أحسن مَخْبَر، ولسانها أفصح لسان، وسكّانها مِن

أكرم السكان، فيها العلم والأدب، والتقى والصلاح، والحبّ فيها واللهو، وفيها الفنون والجمال.

هذي دمشق، كانت لبّ العربية، وبقيت لبّ العربية، وستطلع على العصور القوادم وهي للعربية لبّ وقلب وفؤاد، لها لينُ الماء الذي يَضحَك به بردى، وشدّة الصخر الذي يشمَخ به قاسيون، وصراحة السهل الذي تزدهي به المزة، وكرم الأرض التي تعطي في الغوطة أُكُلها أربع مرات في العام...

لها لين بردى، لكن بردى إذا ضُوِيق بالسدود علا وفاض واجتاح البلاد والعباد، ودمّر كلّ شيء يقف في طريقه، ويقطعه عن مراده، فقُل للغافلين: لا يغركم من بردى لينُه وابتسامه، فإنه سَرعان ما يعبِس ويثور، فاتقوا غَضْبَة الحليم.

وليس للعروبة مثل دمشق موئلاً وملاذاً، وليس في المسلمين مثل أهلها تمسّكاً بالدين وإقامة لشعائره، فمساجدها ممتلئة أبداً، فيها كلّ شاب متأنّق، تراه فتحسبه من شرّاب مياه التايمس أو السِّين، وهو مسلم حقّاً، مؤمن صِدقاً، ناشئ في طاعة الله.

والمنكرات في دمشق مقموعة، وأهلها الأذلاَّء، وللعلماء العقلاء المخلصين منزلة عند أهل دمشق ليس لأحد من أبناء الدنيا مثلها، والسفور في نساء الشام قليل نادر، والاحتشام والستر عامٌّ شامل، وأهل الشام كالماء؛ لهم في الرضا رِقَّته وسَيَلانه، وفي الغضب شِدّته وطغيانه، بل ربما كان لهم من البركان فوراته وثوراته).

ثم تحدّث الطنطاوي عن نهر دمشق فقال:

(بردى، سطر من الحكمة الإلهية، خَطَّتْه يدُ الله على صفحة هذا الكون، ليقرأ فيه الناس ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت، وروعة الماضي والمستقبل، وما بردى إلا سورة من قرآن الكون، وليس إعجازه في أنه يجري، ولكنّ إعجازَه في أنه يَنطِق، وأن في كلّ شِبر منه تاريخ حِقبة من العصور، وتحت كلّ شبر أنقاض أمّة من الأمم...

لقد قام الفينيقيون على أنقاض الحثيين، والكنعانيون بعد الفينيقيين، والفرس بعد الكنعانيين، واليونان بعد الفارسيين، والروم بعد اليونانيين، والغسانيون بعد الرومانيين، والمسلمون بعد الغسانيين، ثم قام العباسيون على أثر الأمويين، ثم قام صلاح الدين، ثم جاء الترك بعد السلجوقيين، ثم جاء فيصل بن الحسين، ثم جاءت جيوش الفرنسيين...

وهكذا يدور الفلك في السماء، ويدور السلطان في الأرض، فينشأ من القبر الحياة، ويُغَطّي على الحياة القبرُ، والسلسلة لا تنتهي والناس لا يعتبرون.

وبردى يبتسم ساخراً من غرور الإنسان، ضاحكاً من جهالته، يحسب نفسه شيئاً فيصارع الكون، ويتطاول.. ويداخله الغرور، فيظلم ويستكبر، فيبعث الله عليه نسمة واحدة من وادي العدم فإذا هذه العظمة وهذا الجبروت ذكرى ضئيلة في نفس بردى، وأنقاض هيّنة في أعماقه، وصفحة أو صفحتان من كتاب التاريخ).

أيها الإخوة:

قرأت للأستاذ محمد كرد علي مقالاً في كتاب (دمشق، مدينة السحر والشعر) يقول فيه:

(والدمشقيون من أكثر الناس حنيناً إلى أوطانهم إذا اغتربوا، وإذا اغتنى أحدهم لا يلبث أن يعود، وفي الدمشقي قوة التمثل إذا دخل بلاد الترك أو الهند أو الفرس أو الإفرنج تَعَلّم لغة البلاد التي نزلها.

والدمشقي يعطف منذ القديم على الغريب، حتى ليكاد يُفرط أحياناً فيما تقتضيه واجبات الضيافة والمجاملة، ويحنو على الفقراء ويُكثِر برّهم.

ومن طبع الدمشقي أن لا يؤخذ بالعنف، وهو يلين حتى مع خصمه، ويهشّ في وجه من يَكرَه، وكما أنه يُحسِن معاملة كلّ إنسان على اختلاف الدين واللسان، ويحبّ أن يعامَل على هذه الصورة).

أنشد محمد مهدي الجواهري دمشق يقول:

دمشق، عشتُكِ ريعاناً وخافقةً ... ولُمَّةً والعيونَ السودَ والأَرَقا

وها أنا، ويدي جِلْد، وسالفتي ... ثلجٌ، ووجهي عظم كاد أو عَرَقا

وأنت لم تبرحي في النفس عالقةً ... دمي ولحمي والأنفاس والرَّمَقا

دمشق صبراً على البلوى فكم فُتِنَت ... سبائكُ الذهب الغالي فما احترقا

أيها الإخوة:

هذا شيء مما قرأتُ في (دمشق، صور من جمالها، وعبر من نضالها).

أخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يقول الله عز وجل: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.

وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله رب العالمين